التعليم والحضارة في فكر ابن خلدون

د. أمل صالح سعد راجح
أستاذ مساعد/ قسم علم الاجتماع / كلية الآداب / جامعة عدن

الملخص

انطلق البحث من رؤية ابن خلدون للعلم والتعليم وارتباطه بالحضارة؛ إذ احتوت مقدمة ابن خلدون إطارًا فكريًا عالج فيه قضايا العلم والتعليم، وارتباطه بالحضارة بوصفه عاملًا لتطور المجتمعات، فالتطور المجتمعي سياسيًا واقتصاديًا يتبعه تطور تعليمي وثقافي أيضًا، كما أن التعليم يزدهر بازدهار حضارة المجتمع، وينتهي ويتلاشى بانهيارها. كما ركز البحث على أهمية الفكر الانساني باعتبار أن الإنسان قد فضله الله تعالى على الكائنات الأخرى بالعقل، الذي استطاع بواسطته أن يبدع ويبتكر ويؤسس كيانًا مجتمعيًا ثقافيًا وحضاريًا. كما هدف البحث أيضًا إلى التعرف على اتجاهات التعليم التي نادى بها ابن خلدون في مقدمته، التي تعد بمثابة خطوط عريضة لصانعي السياسة والمربين في العصر الحديث للاستفادة منها، وتمثلها وتطبيقها في الواقع التربوي والتعليمي.

المقدمة:

تعد الحضارة الإسلامية من أبرز الحضارات الإنسانية عامة؛ فقد عالجت الكثير من الجوانب المادية، والمعنوية التي تمر بها المجتمعات، وأسست رؤىً واتجاهات ما زالت تنبض بالحيوية لمن طالع خزائنها وكنوزها. وتُعّد مقدمة ابن خلدون واحدة من هذه الكنوز التي غاب عنها الكثير إلاّ من خبر أسرارها، واستفاد من معارفها، واستقى من منابعها. ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا ان مقدمة ابن خلدون تُعّد مولدة للأفكار تشحذ العقول بفكرها الوقّاد، وتوجب التمعّن فيها على الرغم من تعاقب الأزمنة وتغيرها، ولا يتأتّى ذلك إلاّ لطبيعة فكر صاحبها المتميّز بغزارته الذي قل ما نجد له نظير بين مفكري عصره، وما تلاه من عصور، ولا يسعنا ونحن ننهل من علمه إلاّ أن نقتفي أثره ونزداد معرفة لحاضرنا، ومستقبلنا. فمن ضمن ما احتوت مقدمة ابن خلدون افكارًا عن العلم والتعليم وارتباطه بالحضارة، وهذه الأفكار شكلّت ولا تزال تشكل أهم الأفكار التي عُنى بها المفكرون، والسّاسة، والمربّون، وخصوصًا قضية التعليم في المجتمعات العربية التي كثر فيها النّقاش، والبحث، والدراسة؛ إذ أفردت لها العديد من الدراسات، والبحوث العربيّة، والأجنبية، وتم الاهتمام، والعناية بهذه الدراسات، والعمل على بلورتها، وتطبيقها في الواقع التعليمي، والتربوي للمجتمعات العربية، لكن نجد بالمقابل أنه قد أغفلت أفكار ورؤى مفكرينا العرب والمسلمين، الذين عالجوا كثيرًا من هذه القضايا التعليمية والتربوية في بطون كتبهم، ومن ضمنها مقدمة ابن خلدون التي احتوت على اتجاهات تربوية وتعليمية عديدة، وتطرقت لكثير من المسائل الموجودة في حياتنا المعاصرة سابقةً بذلك كل علماء العصر الحديث

سواءً إن كانوا تربويين أو علماء اجتماع أو علماء النفس، هذه الأفكار التي إذا ما تم إسقاطها على واقعنا التربوي والتعليمي لأغنت عن كثير من الدراسات، والأبحاث التي لا تتناسب مع واقعنا الاجتماعي والتربوي.

إشكالية البحث:

يتناول البحث قضية من أهم قضايا المجتمعات العربية في العصر الحاضر، وهي قضية تطور العلم والتعليم المرتبطة أشدّ الارتباط بما يحرزه المجتمع من تطور حضاري، مادي، ومعنوي؛ فعلى مدى العقود المنصرمة طرحت عدة تساؤلات عن أسباب إخفاق العملية التعليمية في هذه المجتمعات، وغياب دور العلم فيها، وكانت أغلب الدراسات المرتبطة بالعلم، والتعليم في المجتمعات العربية تفسر إخفاق دور العلم والتعليم لعوامل، وأسباب تربوية؛ أي: الإنطلاق من رؤية تربوية بحته متجاهلة دور المجتمع، وعملية التغيرات التي تعتمل في داخله المؤدية إلى تطور عملية التعليم أو إخفاقها في المجتمع العربي. لذا تُعّد هذه الدّراسة من الدّراسات التي حاولت تناول هذه الظاهرة، وذلك بالنظر إلى أن العلم والتعليم يرتبط أشدّ الارتباط بحركة المجتمع، ويتأثّر بمجرياته على وفق رؤية ابن خلدون، الذي حلل تلك الظّاهرة برؤية علمية متميزة. وبهذا تتمثّل إشكالية الدّراسة في التساؤلات الآتية:

1- ما هي أفكار ابن خلدون حول العلم والتعليم والحضارة؟
2- هل هناك ارتباط بين التعليم والحضارة في فكر ابن خلدون؟
3- ما هي أسباب تدهور التعليم وتقدمه في نظر ابن خلدون؟
4- هل أمتلك ابن خلدون منهجًا تربويًا؟
5- هل يمكننا تكوين رؤية جديدة للعملية التعليمية والتربوية منطلقة من أفكار ابن خلدون التربوية وإسقاطها على واقعنا التربوي؛ لانتشاله من إشكالياته المختلفة؟

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث في أنّه يسعى للكشف عن أفكار ابن خلدون حول التعليم وارتباطه بالحضارة؛ ليقدم رؤية جديدة لفهم عملية التعليم، من كونها تنشأ، وتتطور إذا ما توفرت لها البيئة المناسبة؛ لذا يسعى البحث إلى وضع خطوطًا عريضة لمن لهم علاقة بالشأن التربوي والتعليمي يستفاد منها في تطوير العمل التربوي، والتعليمي مستقبلًا.

أهدف البحث:

يهدف البحث إلى التعرف على أفكار ابن خلدون حول الحضارة، وارتباطها بالتعليم. كما يهدف أيضًا إلى التعرف على الأفكار التربوية لابن خلدون، وتقديم التوصيات التي تساعد على تطبيق أفكار ابن خلدون التربوية في الواقع التربوي للمجتمعات العربية.

منهجية البحث:

يعتمد البحث على المنهج التاريخي، والمنهج الوصفي التحليلي.

مفاهيم البحث:

1- التعليم

- يشير جون ديوي إلى التعليم بأنّه تهيئة البيئة المواتية التي تنبه الاستجابات وتحفزها، وتوجه مجرى المتعلم، ومساره [1].
- كما يُعرف مفهوم التعليم بأنّه تنظيم البيئة التعليمية، واتخاذ الإجراءات، وتحديد الشروط التي من شأنها تسهيل عملية التعلم على التلاميذ [2].
- كما يُعنى بأنّه عملية توفير الشروط المادية، والنفسية التي تساعد المتعلم على التفاعل النشط مع عناصر البيئة التعليمية في الموقف التعليمي، واكتساب الخبرات، والمعارف، والمهارات، والاتجاهات، والقيم التي يحتاجها هذا المتعلم وتناسبه وذلك بأبسط الطرق الممكنة (3).

2- **الحضارة:**

- الحَضَر بفتحتين خلاف البدو.
- والحضارة بالكسر الإقامة في الحَضَر[4].

ولقد تعددت تعريفات مفهوم الحضارة؛ إذ عرفها علماء الانثروبولوجيا منهم رالف بدنجتون بأنّ حضارة أي شعب ما هي إلا حزمة أدوات فكرية، ومادية تمكن هذا الشعب من قضاء حاجاته الاجتماعية، والحيوية بإشباع، وتمكنه كذلك من أن يتكيف في بيئته بشكل مناسب. ويمكن تعريف الحضارة بأنّها إرث الإنسان المادي، والمعنوي الذي خلفه في الماضي، والذي اعتمد عليه الإنسان لإكمال مسيرة حياته، وتقدّمه الحالي، سواءً أكانت مظاهر معنوية كأسلوب الحياة، والمعيشة اليومية، والعلوم والمعارف، أو أدوات ووسائل مادية بقيت أثرًا؛ لوجوده كالبنيان والمسكوكات، والأعمال اليدوية المختلفة، مثل الخزف والفخار وغيرها[5].

ويفرق الذوادي بين الثقافة والحضارة، ودورهما في حركة العمران البشري؛ إذ يؤكّد أنّ دور الثقافة في حياة العمران البشري هو الدّور المؤسس، والمحرك لشكل، ومضمون البناء الحضاري في المجتمعات الانسانية. وبعبارة العلوم الاجتماعية فالحضارة هي متغيّر تابع للثقافة باعتبار هذه الأخيرة هي المتغير ذو التأثير الحاسم، والمحدد لميلاد الحضارة، ونهضتها، وسقوطها؛ إذ بدون المنظومة الثقافية البشرية لا يجوز... الحديث أصلًا عن وجود الحضارة بمعناها الإنساني الذي عرفه التاريخ البشريّ الطّويل [6].

3- العمران البشري:

العمران البشري هو اصطلاح مهمّ استعمله المفكّر ابن خلدون في كتابة "المقدّمة" ويعني به النظم الاجتماعية الفرعية أو المؤسسات الاجتماعية التي يتكوّن منها البناء الاجتماعي. فالنظم الاجتماعية الفرعية التي يتكون منها المجتمع أو البناء الاجتماعي هي ظواهر أو أقسام العمران البشري كالعمران الاقتصادي، والعمران الديني، والعمران السياسي، والعمران العسكري، والعمران العائلي، والعمران التربوي، والتعليمي، والعمران القيمي، والأخلاقي...إلخ، وهذه الصنوف من العمران متكاملة، ومتممة؛ بعضها يتمم البعض الآخر؛ فأيّ تغيير يطرأ على أحد منها لا بدّ أن ينعكس على بقية الصنوف. وهنا يحدث التغير في بنية، وشكلية المجتمع خلال فترة الأمد البعيد [7].

4- الصنائع:

- (صَنَعَ) الشيء _ صُنْعًا : عَمِلَه.
- (صنع) الشيء : عالجه صناعيًا.
- (التّصْنيع) : نشر الصناعة في الأُمة.
- (الصّانِع) : من يحترف الصناعة (ج) صُنّاع
- (الصَّنَّاع) : الماهر في الصناعة.
- (الصِّناعة) : حِرفْةُ الصّانع وكل علم أو فن مارسه الانسان حتى يمهر فيه ويصبح حرفه له.
- (الصَّنْعَةُ) : عمل الصانع وحرفته والطريقة المنظمة الخاصة التي تتبع في عمل يدوي أو ذهني(8).
- والصناعة بالكسر حرفة [9]. والصنائع: هي كل عمل يعتمد عليها الانسان في الحصول على قوته وقوت أهله.

اولًا: الفكر الإنساني

ينطلق ابن خلدون في معرض حديثه عن العلوم، وأصنافها، وإلى التعليم، إلى أن الإنسان قد تميّز عن سائر المخلوقات بالفكر الإنسانيّ؛ فاجتماعه مع غيره، والتعاون مع أبناء جنسه؛ لتحصيل ضرورات الحياة لا يستقيم إلا بوجود هذا الفكر، الذي يستطيع به الانسان أن يميّز، ويفكّر، ويبدع في المجتمع. فيجرد الإنسان صور المحسوس إلى صور أخرى، ويقوم بإعمال الذِّهن من خلال الانتزاع، والتركيب؛ فالفكر عند ابن خلدون هو إدراك الخارج عن ذاته الذي وراء الحس. فالإنسان بتملكه للفكر قادر على إجادة صناعة التّعليم، وغيرها من الصناعات، والتبحّر فيها، باعتبار أن هذا الفكر لا يقوم على شاكلة واحدة، وإنما يقوم على مراتب متعددة؛ فالعقل التمييزيّ يرتب الأمور ترتيبًا طبيعيًا، وله القدرة على إعمال الذهن في ذلك. أما العقل التجريبيّ فهو إعمال التجربة في قياس الأمور، والتي تحصل بها الفائدة في معاملة الغير من النّاس، ومدّهم بالآراء، والآداب؛ لتحصل الاستفادة في حياتهم، وأمور مجتمعهم. والعقل النظري هو التصورات والتصدقات الذي تنتظم انتظامًا خاصًا على شروط خاصة؛ فهي تشبه النظريات العامة التي تنتظم عن الحياة الإنسانية، والوجود، ومدركاته، والوصول إلى الحقيقة الكلية للحياة الإنسانية، والعالم الحيّ، وهو ما قصده ابن خلدون (الحقيقة الإنسانية)، وبمراتب العقل هذه، وضع ابن خلدون صورة متكاملة للفكر الإنساني، فبواسطة كل من الفكر التمييزيّ والنظريّ، والتجريبيّ تتم تشكيل صورة متكاملة للإنسان، وقدرته على صنع الحضارة وتمثلها في صورتيها المادية والمعنوية. (فالعقل النظري، ليس منفصلًا عن العقل التمييزي، والعقل التجريبي؛ فهما محتاجان إليه، وهو يأتي في مرتبة أعلى تفترضهما. فما هو العقل التمييزي؟ إنّه " تعقل الأمور المرتبة في الخارج ترتيبًا طبيعيًا أو وضعيًا، ليقصد (الإنسان) إيقاعها بقدرته. إنّه عقل ذو غاية عمليّة، نفعيّة، معاشيّة؛ ولذا يمكن أن يسمى عقل العمل اليدوي، عقل التعامل مع الأشياء أو عقل المعاش، أو العقل الصناعي، حيث إن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري ولكنّه أولًا، إدراك الترتيب الذي في الأمور الطبيعية أو الوضعية" وذلك الفكر يدرك الترتيب بين الحوادث بالطبع أو بالوضع. فإذا قصد إيجاد شيء من الأشياء، فلأجل الترتيب

بين الحوادث لابد من التفطن بسببه أو علته أو شرطه أوليس من مهمة العقل النظري أن يكشف عن الأسباب، والعلل، والشروط التي تخضع لها حوادث الكون وحوادث الإنسان؟ لا شكّ في ذلك؛ وهذا يعني أن العلوم العقلية، ولا سيّما في جانبها المتعلق بأعمال المعاش، والصنائع، جزء لا يتجزّأ من العقل الحضاري... غير أن انتظام الأفعال الإنسانية بالفكر لا ينحصر في مستوى العقل التمييزي، وما يستلزمه من معارف نظرية، وذلك لأن الإنسان اجتماعي بالطبع؛ ففي هذا المستوى في وجود الإنسان، يتحول الفكر إلى عقل تجريبي "يفيد الآراء، والآداب في معامله أبناء جنسه، وسياستهم وبهذا التحول تمتدّ العقلانية العملية إلى مجال الاجتماع، والسياسة)[10]. وعلى الرغم من رجاحة الفكر الذي ميّز الله تعالى بني آدم إلا أن الحذق في العلم؛ أي: الإجادة فيه لا تحصل إلا بوجود ملكة أو موهبة تساعد في الإحاطة بمبادئ التعليم، وقواعده والوقوف على مسائله، وقضاياه؛ للعمل على استنباط الفروع من الأصول، وهذه الملكة يكتسبها الإنسان بتكرار الأفعال؛ أي: بالتجربة، والمران في العمل؛ وبهذا يعني ابن خلدون بأن الملكة لا تكون إلا بتكرار الأعمال ورسوخها. وإذا قسنا ذلك في حاضرنا على أجيالنا؛ فكلّما كان النشء معتادًا على طلب العلم والتفنن فيه من خلال التجارب الحقلية والمعملية أدّى ذلك إلى البراعة والإجادة في هذا العلم، كعلوم الطب، والهندسة والزراعة، وكلّما كان الإنسان مفتقِرًا لذلك ظلّت أفكاره قديمة لا حراك فيها. كما أن تطور التعليم لا يتم إلا بوجود أُناس ذوي خبرة، ودراية؛ تناط بهم أمور التعليم، ونقله للأجيال، جيلًا بعد جيل، وهذا ما قصده ابن خلدون بالسند في التعليم؛ أي: الاستمرارية، ونقله من الشّيوخ إلى تلاميذهم ممن تتوافر فيهم الدّراية، والخبرة. كما أشار ابن خلدون إلى "اختلاف الاصطلاحات فيه؛ (أي: في التعليم)؛ فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختصّ به شأن الصنائع كلّها؛ فدلّ على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم؛ إذ لو كان من العلم لكان واحدًا عند جميعهم" [11]؛ إذ يبين ابن خلدون أن (منهجيات التدريس) تختلف بحسب كلّ مُعلّم أو شيخ، فكل منهم يعتمد على منهجيّة مغايرة عن الآخر، كالاعتماد على الشروحات، أو الكتب المطولة، أو

الملازم، والمختصرات كما في الوقت الحالي، وتعدّد هذه المنهجيّات هي وسائل، وطرق في التعليم يُسمّيها ابن خلدون صناعات في التعليم، والعلم واحد في نفسه.

ثانيًا: الاتجاهات التعليمية في فكر ابن خلدون

ركّز ابن خلدون في مقدّمته على مجموعة من الاتجاهات التعليمية التي يجب مراعاتها عند القيام بعمليّة التعليم؛ إذ تُعّد هذه الاتجاهات بمنزلة طرق حديثة، نادى بها علماء الاجتماع، والنفس، والتربية عند عملية إعداد النشء، وتربيتهم، إلا إن ابن خلدون يُعدّ سبّاقًا إلى ذلك بقرون عديدة عن علماء العصر الحديث، ومن هذه الاتجاهات:

- **كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مُخِلّة بالتعليم:**

يؤكّد ابن خلدون أن كثيرًا من المتأخرين يعمدون إلى اختصار الطّرق، والأنحاء في العلوم يولعون بها، ويدونون منها برنامجًا مختصرًا في كل علم يشتمل على حصر مسائله، وأدلتها باختصار في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن؛ فصار ذلك مخلًا بالبلاغة وعسيرًا على الفهم؛ ونتيجة لذلك يتوصّل ابن خلدون إلى أن ذلك يؤدّي إلى فساد في التعليم، وفيه إخلال بالتّحصيل؛ وذلك لأنّ فيه تخليطًا على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التعليم ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبّع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها، وصعوبة استخراج المسائل من بينها.

- **أنّ الشدّة في التعليم مضرّة بهم:**

يؤكّد ابن خلدون أن زيادة الحدّ في التعليم يسبب إرهاقًا للمتعلم، وخصوصًا الأطفال وأن على المعلم أن لا يستبد في التأديب، ولا يزيد في ضرب الطلاب، وهذا

الاتجاه الذي نادى به ابن خلدون يُعّد من ضمن الاتجاهات التربوية الحديثة في التربية؛ إذ ركزت هذه الاتجاهات على معاملة الطلاب باللين، والعمل على إمدادهم بالمعارف التي تتناسب مع سنهم، ومداركهم. يقول ابن خلدون في ذلك: (إن إرهاف الحدّ في التعليم مضرّة بالمتعلّم سيّما في أصاغر الولد؛ لأنّه من سوء الملكة... ينبغي للمعلّم في متعلّمه والوالد في ولده أن لا يستبدوا عليهم في التأديب) [12].

- **التدرّج في التّعليم:**

يؤكّد ابن خلدون أن تلقين التعليم إنّما يكون بالتدريج شيئًا فشيئًا، وقليلًا قليلًا، ويتم عبر ثلاث تكرارات فيقول:

- يلقى عليه أولًا مسائل من كُلّ باب من الفن، هي أصول ذلك الباب، ويقرّب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعي في ذلك قوّة عقله، واستعداده لقبول ما يورد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكه في ذلك العلم إلا إنّها جزئية، وضعيفة، وغايتها أنّها هيأته لفهم الفن، وتحصيل مسائله.

وهذه الطريقة هي بمنزلة تهيئة الطّالب لمعرفة العلم سواءً كان علمًا نظريًا أو عمليًا؛ فالإحاطة الأوليّة بالعلم تساعد في فهمه واستيعابه لاحقًا.

- في المرحلة الثّانية يوضّح ابن خلدون أنّه يرجع المعلم بالمتعلم إلى الفنّ ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشّرح، والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته.
- في المرحلة الثّالثة يرجع المعلّم بالمتعلّم إلى العلم مرة أخرى، ويوضح له كل الأمور المعقدة، والمبهمة، والمنغلقة في العلم، ويعمل على شرحها، وتوضيحها حتى يصل إلى الفهم العميق بالعلم وتمكن منه واستولى على ملكته.

إن هذه الطرق الثلاث التي وضعها ابن خلدون تُعّد من أهم الطرق في التّعليم، والتي سنجني نتائجها على المدى البعيد؛ فالعملية التعليمية تحتاج إلى التدرُّج، والتوضيح، والشّرح للطلاب؛ للوصول إلى الفهم العميق للعلم، الذي سوف يتخصصون فيه. إن عملية إسقاط الفكر التربوي التعليمي لابن خلدون في الواقع التعليمي والتربوي لمجتمعاتنا، واستخدام طرقه في تنشئة الأجيال الحالية، سيعمل على حلّ كثير من المشاكل التربوية التي تعاني منها العملية التعليمية في مجتمعاتنا.

- كذلك يؤكّد ابن خلدون أن من المذاهب الجميلة، والطّرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معًا فإنه حينئذ قلّ أن يظفر بواحد منهما؛ لما فيه من تقسيم البال، وصرفه عن كل واحد منهما إلى تفهّم الآخر فيستغلقان معًا، ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة؛ وإذا تفرّغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصرًا عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله.

لقد عالج ابن خلدون بنظرته تلك ما هو واقع، وحادث في العمليّة التعليميّة في العصر الحديث؛ من إدخال تعليم اللغات الأجنبية كاللغة الإنجليزية، والفرنسية في المرحلة الأساسية في بعض المدارس العامة والمدارس الخاصة، في الوقت الذي يكون تلميذ المرحلة الاساسية محتاجًا إلى أن يتقن لغته الأم (اللغة العربية)؛ وبهذا الخلط بين تدريس اللغات الأخرى للتلاميذ مع اللغة الأم يسبب لكثير من التلاميذ صعوبة في استيعاب لغتهم الأم بشكل جيد؛ وكذا استيعاب اللغات الأخرى. إن الاقتصار على اللّغة العربية، وتدريسها للتلاميذ في مراحلهم الأساسية من التعليم أجدر باستيعابها وإجادتها؛ ومن ثمّ في مراحل متقدمة من عُمر التلاميذ يمكن تدريسهم اللغات الاخرى.

ثالثًا: ارتباط التعليم بالحضارة:

لقد تجاوز ابن خلدون مفكرين كثر برؤيته لديناميكية المجتمعات الإنسانية؛ فقد رأى أن حياة هذه المجتمعات تنبع من داخلها؛ فحضارة أيّ مجتمع ما: هي بمنزلة استمرارية حياة هذا المجتمع وديمومته، والعكس صحيح، كلما خبت ديناميكية المجتمع، وانزوت خبا بريق حضارته واضمحل. وكلما زادت هذه الحضارة تفنن المجتمع في صنوف معاشية مختلفة، ومنها التعليم؛ فهو مرآة

عاكسة للمجتمع يخضع لشروط تطوره، ورقيه الحضاري؛ فيتطور بتطور الحضارة، والمدنية؛ فينتشر العلم في الأرجاء؛ لوجود مشاعل الفكر من علماء، ومشائخ، وروّاد علم؛ ينقلون التعليم من مِصرٍ لآخر، وبين الطلاب بعضهم البعض؛ إذ يقول ابن خلدون: (إن تعليم العلم كما قدّمناه من جُملة الصنائع، وقد كنا قدمنا أن الصنائع إنّما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة؛ والقلة والحضارة، والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة، والكثرة؛ لأنّه أمر زائد على المعاش؛ فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان، وهي العلوم، والصنائع، ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى، والأمصار غير المتمدنة؛ فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي؛ لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه، ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع في أهل البدو [13].

يؤكد ابن خلدون في ما سبق أن التعليم شأنه شأن أي تطور يلحق المجتمع في سلم الحضارة؛ فهو نتاج حضاري، مجتمعي، ومدني أخذ في التطور والنماء، بالمقابل يرى أن التعليم يُفتقد في القرى، والمجتمعات البدوية لما جبلت هذه المجتمعات من أخذها للضروريات في المأكل والملبس؛ فالتعليم إذًا نتاج حضاري لمجتمعات ارتقت في سلم المدنية، والتطور. ويؤكد ناصيف نصار من أن التفاوت بين البدو والحضر كما يقره ابن خلدون هو في العقل المزيد؛ إذ (يلاحظ ابن خلدون أن تكاثر العلوم، والصنائع، وتراكمها من جيل إلى جيل، بفعل توسع العمران الحضري وازدهاره ؛ يتركان أثرًا في النفس؛ بحيث يبدو النّاس متفاوتين في العقل، على غرار ما يبدو أهل المشرق مثلًا بالنسبة إلى أهل المغرب، والوضع الحقيقي لهذا التفاوت إنّما هو في (العقل المزيد)، وليس في العقل الطبيعي. "وإنّما الذي فضل به أهل المشرق أهل المغرب هو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من العقل المزيد" فما هو هذا العقل الذي يسميه ابن خلدون (العقل المزيد) إنّه: العقل المتولد من تراكم الممارسة، في العمران الحضري، للعقل التمييزي والعقل التجريبي والعقل النظري ومن تواصلها بواسطة التعليم. فهو عقل جامع لكلّ أنواع الجديد والراقي، الناتجة بفكر الإنسان في تطور العمران. ولما كانت الحضارة هي غاية العمران، وهي ما يتسبب في توليد هذا العقل، وفي الوقت نفسه ما يستوعبه ويستفيد منه، فلا حيد عن الصواب في تسميته بالعقل الحضاري[14]. كما قرر ابن خلدون بمقارنته للمجتمعات في عصره اختلال تطور

بعضها عن الأخرى؛ ويعود سبب ذلك إلى تلاشي حضارة هذه المجتمعات، الذي أثّر بدوره في جميع مفاصل المجتمع، ومنها التعليم فيخبو دوره، وتتناقص استمراريته في المجتمع؛ إذ يقول: "إن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه، وتناقص الدول فيه، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع، وفقدانها كما مر؛ وذلك أن القيروان، وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب، والأندلس واستبحر عمرانها وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة، وبحور زاخرة، ورسخ فيهما التعليم؛ لامتداد عصورهما، وما كان فيهما من الحضارة؛ فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلًا كان في دولة الموحدين بمراكش مستفادًا منها، ولم ترسخ الحضارة بمراكش، لبداوة الدولة الموحديّة في أولها، وقرب عهد انقراضها بمبدئها؛ فلم تتصل أحوال الحضارة فيها إلا في الأقل"[15]. مما يدل على أن التعليم نظام اجتماعي أساسي، وعامل مهم في قيام التحديث المجتمعي، والحضاري في المجتمع. وقيام الحضارة بما هي كل جامع للتطورات ترتقي وتزداد بالتعليم، وبدوره يتأثر التعليم بالتطورات الاقتصادية، والسياسة التي يعانيها المجتمع، وتؤثر في دوره المجتمعي عند اضمحلال حضارة الشعوب وأفول قوتها.

كما لاحظ ابن خلدون (انقلاب أحوال المغرب في أواخر المائة الثامنة وأثر الطاعون الجارف في أواسط تلك المائة مما أدى إلى انتقاص عمران الأرض في المشرق والمغرب؛ ولعله أدرك أفول الحضارة الإسلامية فقال: وإذا تبدلت الأحوال جملة؛ فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره؛ وكأنّه خلق جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم محدث؛ فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة، والآفاق، وأجيالها، والعوائد، والنحل التي تبدلت لأهلها. وهكذا حاول ابن خلدون أن يضع نظرية شاملة؛ لفهم نشأة المجتمعات وتطورها، المجتمعات التي عرفها، وأميز ما فيها أنّه نظر إليها نظرة متكاملة من النواحي الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية[16]. ثم يضرب لنا ابن خلدون مثلًا بالمشرق من أنّه نتيجة لعدم انقطاع سند التعليم، وتوارثه من جيل لآخر، واتصاله بالعمران، والحضارة ترسخت فيه صناعة التعليم، وأتمت الحضارة فيه. كما ربط ابن خلدون بين الازدهار الحضاري في المجتمعات، وقوة الدولة، ورسوخها في المجتمعات؛ (فالحضارة، إنّما تقوم وتزدهر في الأمصار بالدولة وهي ترسخ باتصال الدولة،

ورسوخها؛ "فابن خلدون عندما يبرز أهمية الدولة بهذا الشكل متخذًا من التجربة الحضارية العربية الإسلامية إطاره المرجعي الأساسي إن لم يكن الوحيد، إنّما يعبر عن حقيقة تاريخية نحن اليوم أحوج ما نكون اليوم إلى تحليلها، وجلاء أبعادها، وتبين آثارها على ماضينا، وامتداداتها إلى حاضرنا. هذه الحقيقة الواقعية التاريخية هي ذلك الدور الأساسي، والمهيمن الذي كان وما يزال للدولة في المجتمع العربي والإسلامي؛ فالدولة في هذا المجتمع كانت، وما تزال صورة المجتمع؛ بمعنى المقوم الأساسي لوجوده، ووحدته، والمسؤولة عن ازدهاره أو ذبوله؛ فهي المؤلفة بل القاهرة للطوائف، والجماعات، والأفراد؛ وهي المهيمنة على الاقتصاد المتصرفة في الاموال، والمتاع، وفي أحيان كثيرة دون قيود ولا حدود؛ وهي المشرفة على التعليم الموجهة للفكر، المراقبة للتفكير، هذا بالإضافة إلى مهامها الدينية التي رسمتها لها الشريعة الاسلامية كإقامة الحدود وحماية الثغور [17]. كما يؤكد ان زوال الحضارة، وخراب المدن أو الدول، وغياب مظاهر الحضارة، والتطور يؤثر في قدرات الأفراد في اكتساب الطرق، والمهارات، وهذا ممكن ملاحظته في مجتمعاتنا الحديثة؛ فغياب التعليم الصحيح للنشء يؤدي إلى وجود أجيال ضعيفة لا تحسن التصرف أو النقد والإبداع في أسلوب حياتها، وقدراتها التعليمية، وهذا لعمري رؤية حصيفة من عالم تميز بالنظرة الثاقبة ليس فقط للعصر الذي عاش فيه؛ وإنّما هي رؤية تتماهى مع الزمن لتخترق واقعنا التعليمي لتدرسه، ومن ثم تقوم بتحليله. فابن خلدون يرى أنّ قوة اللسان بالمحاورة، والمناظرة في المسائل العلمية هي مميزات تدل على حصول ملكة التعليم والحذق فيه؛ ولكن لأفول الحضارة، وعدم استمرار التعليم وتتابعه كما أشرنا سابقاً ينعدم اكتساب هذه الملكة من طلاب العلم؛ لذا تكون عنايتهم للحفظ أكثر، وضنّهم أنّه المقصود من الملكة العلمية. ويذهب ابن خلدون في المقارنة بين حياة الحضري والبدوي؛ إذ تجد الحضري متحليًا بالذكاء ممتلئًا بالكيس، وهي الرزانة والاستقامة، وما هذه الصفات ببعيدة عن البدوي، ولكن من رأى أحوال الحضريين من البدو يظن أنّه أقلّ ذكاءً وعقلًا منهم، ومنبع هذا الاختلاف في نظر ابن خلدون، لتأثير الحضارة في الإنسان الحضري؛ إن كان في المأكل والملبس، والمسكن، والتعليم والصنائع المختلفة؛

فالمدنية، والتحضر يُعدان عاملين أساسيين في تغير أفكار الإنسان الحضري وسلوكياته، وسرعة تقبله للتجديدات الحديثة، عكس الإنسان البدوي الذي تقتصر حياته على الأساسي والضروري من الأشياء، وانعدام الوسائل المتعددة للمدنية الحديثة في المناطق الريفية، والبدوية، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "وذلك أنّ الحضر لهم آداب في أحوالهم في المعاش، والمسكن، والبناء، وأمور الدين والدنيا، وكذا سائر أعمالهم، وعاداتهم، ومعاملاتهم، وجميع تصرفاتهم؛ فلهم في ذلك كله آداب يوقف عندها في جميع ما يتناولونه، ويتلبسون به من أخذ وترك حتى كأنّها حدود لا تتعدى، وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم، ولا شك أنّ كل صناعة مرتبة يرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلًا جديدًا تستعد به لقبول صناعة أخرى، ويتهيأ بها العقل بسرعة الإدراك للمعارف... ألا ترى إلى أهل الحضر مع أهل البدو كيف تجد الحضري متحليًا بالذكاء ممتلئًا من الكيس حتى أن البدوي ليظنه أنّه قد فاته في حقيقة إنسانيته وعقله وليس كذلك؛ وما ذاك إلا لإجادته من ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضرية ما لا يعرفه البدوي؛ فلما امتلأ الحضري في الصنائع، وملكاتها وحسن تعليمها ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنّها لكمال في عقله، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها، وجبلتها عن فطرته، وليس كذلك؛ فإنا نجد من أهل البدو من هو في أعلى رتبة من الفهم، والكمال في عقله وفطرته؛ وإنّما الذي ظهر على أهل الحضر من ذلك فهو رونق الصنائع، والتعليم فإن لهما آثارًا ترجع إلى النفس كما قدمناه"[18].

مما سبق نجد أن ابن خلدون قد وسّع في تاريخ التربية والتعليم لدى كثير من الأمم الإسلامية في المشرق والمغرب، مبينًا رأيه في الطرق المتبعة لدى هذه الأمم، وموضحًا ما ينبغي أن تسير عليه التربية، ويسير عليه التعليم في مختلف مراحل الطفولة والشباب؛ حتى يحققا أغراضهما الفردية، والاجتماعية من أيسر طريق وأقصره؛ وحتى تجيء أساليبهما متفقة مع طبائع المتعلمين، ومسايرة لتطورهم وعمرهم من الناحيتين الجسمية والعقلية [19].

الخاتمة:

كان لابن خلدون رؤية واضحة سبقت عصره، وظهرت في عصورنا الحديثة وبعد هذا العرض توصلت الباحثة إلى جملة من النتائج توجزها في الآتي:

1- تعدّ مقدمة ابن خلدون جزءًا من الفكر الإنساني؛ يتميّز بموسوعيته، وشموليته لأكثر القضايا المجتمعية والإنسانية.

2- يرى ابن خلدون أن الإنسان يتميز عن سائر المخلوقات بأفضليته بالعقل الذي يتنوع إلى مراتب متعددة؛ كالعقل التمييزيّ، والتجريبيّ، والعقل النظريّ.

3- احتوى فكر ابن خلدون على مجموعة من الاتجاهات التعليمية التي يجب مراعاتها عند القيام بعملية التعليم؛ مما يدل على تملك ابن خلدون منهجًا تربويًا يوازي الاتجاهات التي يتبناها علماء التربية، وعلماء النفس في العصر الحديث، ومن هذه الاتجاهات:

أ- كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم.

ب- أنّ الشدة في التعليم مضره بالمتعلم.

ج- التدرج في التعليم.

د- عدم الخلط على المتعلم علمين معًا.

ومن هذه الاتجاهات التي أوردها ابن خلدون في مقدمته ممكن الانطلاق منها لتشكيل رؤية جديدة للتعليم لعصرنا الراهن؛ وإسقاط هذه الأفكار على واقعنا التربوي للعمل على انتشاله من إشكالياته المختلفة.

4- أشار ابن خلدون إلى أنّ التعليم ناتج من نواتج الحضارة؛ فكلما ازدهرت حضارة مجتمع ما تفنن هذا المجتمع في الصنائع، ومن جملتها تعليم العلم؛ مما يدل على أنّ التعليم والعلم نتاج حضاري في المدن، وليس في القرى، والبادية لاقتصار هذه التجمعات على الأساسي، والضروري في المعيشة عكس المدن التي تكثر فيها العلوم؛ لاحتياج أهلها لذلك.

5- توصل ابن خلدون إلى أنّ ازدهار التعليم، وانقطاعه يكون تبعًا لازدهار هذا المجتمع وخرابه في سلم التطور والحضارة؛ مما يدل على رؤية حصيفة من هذا المفكر يتعرض فيها لواقعنا، ووضعنا الحالي؛ من ضعف التعليم في

مجتمعاتنا؛ والذي يعود في مجمله لتدهور المجتمعات العربية في سلم الحضارة والتطور؛ فالتعليم يرتبط أشد الارتباط بالجوانب المختلفة للمجتمع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية كافة؛ وقد أورد ابن خلدون على ذلك أمثلة عديدة سواء من دول المشرق أو دول المغرب، والتي أوردناها في البحث.

6- كما ربط ابن خلدون بين الازدهار الحضاري في المجتمعات، وقوة الدولة، ورسوخها في المجتمعات، فالحضارة إنّما تقوم وتزدهر في الأمصار بالدولة وهي ترسخ باتصال الدولة ورسوخها.

7- كما يؤكد أنّ زوال الحضارة، وخراب المدن أو الدول وغياب مظاهر الحضارة، والتطور يؤثر في قدرات الأفراد في اكتساب الخبرات، والمهارات؛ وهذا ممكن ملاحظته في مجتمعاتنا الحديثة؛ فغياب التعليم الصحيح للنشء يؤدي إلى وجود أجيال ضعيفة لا تحسن التصرف، والإبداع في أسلوب حياتها، أو قدراتها التعليمية.

8- كما يذهب ابن خلدون في المقارنة بين حياة الحضري، والبدوي، من أنّ الحضري تجده متحليًا بالذكاء ممتلئًا بالكيس وهي الرزانة والاستقامة؛ وما هذه الصفات ببعيدة عن البدوي؛ ولكن من رأى أحوال الحضريين من البدو يظن أنّه أقل ذكاءً وعقلًا منهم، ومنبع هذا الاختلاف في نظر ابن خلدون؛ ينتج من تأثير الحضارة في الإنسان الحضري سواء كان في المأكل، والملبس، والمسكن، والتعليم، والصنائع المختلفة؛ فالمدنية، والتحضر عاملان أساسيان في تغير أفكار الإنسان وسلوكياته لما يتصف به الإنسان الحضري من السرعة في تقبل التجديدات الحديثة عكس الإنسان البدوي الذي تقتصر حياته على الأساسي والضروري من الأشياء، وانعدام الوسائل المتعددة للمدنية الحديثة في المناطق الريفية والبدوية.

الهوامش و المراجع

1- جون ديوي، قاموس جون ديوي للتربية "مختارات من مؤلفاته"، جمعها رالف ن. وين، ترجمها محمد علي العريان، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1964م، ص64.

2- محمد محمود الخوالدة، مقدمة في التربية، دار المسيرة، عمان، الأردن، الطبعة الثانية، 2010، ص19.

3- علي راشد، مفاهيم ومبادئ تربوية، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1993، ص63.

4- محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1981م، ص371.

5- حسين حمودة عبد الحميد، الحضارة العربية الإسلامية وتأثيرها في العالم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، الطبعة الاولى،2012م، ص10-11.

6- محمود الذوادي، الثقافة بين تأصيل الرؤية الإسلامية واغتراب منظور العلوم الاجتماعية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، 2006م، ص48.

7- إحسان محمد الحسن، موسوعة علم الاجتماع، الدار العربية للموسوعات، بيروت، الطبعة الأولى، 1999م، ص464،463.

8- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، 1989.

9- محمد بن أبي بكر الرازي، مصدر سابق، ص371.

10- ناصيف نصار، ابن خلدون في منظور الحداثة في كتاب فكر ابن خلدون الحداثة، الحضارة والهيمنة، سلسلة دراسات كتب المستقبل العربي (54) مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت،2007م، ص29.

11- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، راجعه وقدمه عبد الباري محمد الطاهر، دار الغد الجديد، القاهرة، الطبعة الأولى،2012م، ص401.

12- نفس المرجع، ص541- 542.

13- ابن خلدون، مرجع سابق، ص404.
14- ناصيف نصار، مرجع سابق، ص 28.
15- ابن خلدون، مرجع سابق، ص401.
16- عبد العزيز الدوري، ابن خلدون والعرب مفهوم الامة العربية، في الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية، سلسلة كتب المستقبل العربي (31)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى،2004، ص126.
17- محمد عابد الجابري، التراث والحداثة دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1991م، ص220.
18- ابن خلدون، مرجع سابق، ص403- 404.
19- وافي علي عبدا الواحد (1984) عبقريات ابن خلدون، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية.

Abstract

This study starts with Ibn khaldoon's view of science and education and its relationship with civilization. Ibn khaldoon's introduction incorporates a thought- framework a thought- framework that treats science and education problems (matters) that connected with civilization as a factor for societies development the political and economic society's development follows by educational and cultural development. Education flourishes in a civilized society, and collapses with the destruction of civilization. The study also focuses on the important of human thought as Allah distinguishes man with the competency of reason that helps man to create, innovate, and establishes asocial, cultural, and civilized identity. This study also arms at recognizing the educational trends stated in Ibn khaldoon's introduction, such educational trends play as guidelines for decision – makers in politics and education in the modern age to by benefited from and applied in the educational situation.